تجليات الأثر الحجاجي للبلاغة القرآنية

بمنظور ضروب الوصل والفصل(نماذج قرآنية مختارة)

the Dualism of liaison -the effect of the argument rhetorique Quranic And Dissociations (Selected Quranic Models)

عماري مالك. ملحقة قصر الشلالة، جامعة ابن خلدون – تيارت – الجزائر.

ammarimalek.50@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/17 تاريخ القبول: 2022/07/30 تاريخ النشر: 2022/12/15

الملخص: يقوم هذا البحث المقتضب على فكرة البحث في إعجاز بلاغة القرآن الكريم من خلال تجلياته الحجاجية، بمنظور ضروب الوصلLiaison والفصل dissociation باعتبارهما في تصور شاييم بيرلمان – ومن حذا حذوه – من أهم أسس ومرتكزات الدرس الحجاجي لما تحمله هذه الثنائية من وظيفة إقناعية بامتياز، محاولا تقديم مقاربة أكشف من خلالها عن فلسفة مفهوم هذه الثنائية و وظيفتها، كما أحاول أن أختصر أيضا طريق التجاوب بين جمالية البلاغة القرآنية وحجاجيتها في النص القرآني بتطبيق يمسّ أساليب بلاغته من معان وبيان وبديع.

الكلمات المفتاحية: بلاغة . حجاج . إقناع . وصل . فصل . جمالية . إعجاز . قرآن.

Abstract: This brief research is based on the idea of researching the miracle of the eloquence of the Holy Quran in its dimensions argumentative from perspective the liaison and dissociation, And this duality According to Chaim Perelman's conception - and who followed his example- One the most important foundation and anchors of the lesson argumentative for what you carry this duality from function persuasive par excellence, I tried to present an approach through it which I reveal the philosophy of the concept of this duality and its function, I also try that relatives of interaction between the aesthetics of Quranic rhetoric and its arguments in the Quranic text, through the An application that touches the methods of his eloquence;The meanings and Statement and adorable.

key words:Rhetoric, argumentaion, persuasion, Liaison,dissociation, the aesthetic, miracle, Quran.

المؤلف المرسل: د/عماري مالك. **الإيميل**: ammarimalek.50@gmail.com

1. مقدمة:

إنّ أهم ما يسترعي انتباه الناظر في الخطاب القرآني، تلك الخصوصية البلاغية التي تُظهر فضل كلام الله على غيره من الكلام، من حيث النظم والتأليف والتصوير والنغم، وهي أساليب تشتمل على البعدين: الجمالي والحجاجي؛ جمالي يلامس الوجدان، وحجاجي يخاطب العقل؛على اعتبار أن لا دعوى بدون حجّة. وما دام العرب لم يبرعوا إلاّ في فنّ الكلام، وأسـرار طرق البيـان، فإنّ ممّا لا شك فيه أن تكون الحجّة من مثل ما برع فيه العرب، فدلّ هذا على أنّ المعجزة التي احتجّ بها النبيّ – ﷺ- على صدق نبوتـه، وأعجز بها خصومه هي بلاغة القرآن، وهذا يستلزم بالضرورة أنّ البلاغة حجّة.

الذي ذكرته يسوقني إلى القول بأنّ اكتساب النّص القرآني هذه الدرجة العالية من الحجاج ،كونه يحمل ميزة الاشتمال على البعد الجمالي، وهذا ما يؤكده أوليفيي ريبول، إذ يعتبر الإقناع في الأصل ناتج عن الوظيفة الإمتاعية، وهيمنتها من خلال التوازنات الصوتية والصور البلاغية، والتقديم والتأخير، وغير ذلك، فالخطاب البيداغوجي في تصوره مقنع ببلاغته، والبلاغة العربية تعتبر الإعجاز القرآني كائنا من جهة بلاغته.(عمر أوكان، 2011م،ص251-252).

ومن منطلق ما أسلفت ذكره فإنّ هذا الطرح يخول لي بناء مفهـوم خاص للحجاج البلاغي، فيكون حجاجا موجها إلى العقل والقلب معا، لأنّ " الحجاج في النهاية ليس سوى دراسـة لطبيعـة العقول ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم".(الأمين الطلبة، 2008م، ص121).وهذا بالطبع لا يتأتّى إلاّ بالوعي بتلك الخصوصية البلاغية التي وصل العرب إلى أوجّ إحكام الصنعة فيها.

هنا حتّم علي أن أقف عند إشكالات مفادها: ما الشيء الذي يمكن الاستناد عليه في جعل البلاغة بعلومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع حجاجية بامتياز؟ ثم هل هذه الأساليب المختلفة تتفاوت من حيث الجمال والإقناع لخاصية إبداعية فيها، أم لمقام الكلام وسياقه؟وما الأثر الذي يترتب عن كل هذا التنويع في الأساليب؟ وما سرّ ذلك؟

أمّا بالنسبة للأهداف التي تسعى هذه الدراسة إلى بيان جوانبها تتمثّل في: تثمين الخاصية الحجاجية لبلاغة القرآن بمنظور طرق الوصل والفصل الحجاجيين، لكن ليس على حساب الوظيفة الجمالية الإمتاعية كما

قرر بيرلمان، بل من خلال المزج بين وظيفة الإقناع التي ميزت أساليب القرآن البلاغية، ووظيفة الإمتاع التي عُرف بها، وهذا نفس ما ذهب إليه عمر أوكان، إذ يرى أنّ التمييز بين بلاغـــة العقل، وبلاغـــة الإمتاع الذي يقوم في نظر البعض على أساس أنّ الأولى تخاطب العقل عن طريق البرهنة والحجاج، والثانية تخاطب العاطفة عن طريق جمال العبارة ورقّة الأسلوب، غير صحيح، بل يرى أنّ بلاغة الإقناع لا تخاطب العقل فقط، بل إنّها تخاطب العاطفة أيضا. (الأمين الطلبة، ص250).

هذا الذي ذكرت آنفا ولّد لديّ شغف السعي والتنقيب والكشف عن إمكانية الربط بين الحجة وبلاغـــة القرآن، مع بيان سبب هذا السحر الذي لازم البلاغة فملك الأفئدة واستبدّ بالنّفوس، لدرجة أنّ الرجل كان لا يسمع آية من القرآن إلاّ خضع وأذعن. كما أنّي حاولت تثمين الوظيفة الحجاجية، لكن ليس على حساب الوظيفة الجمالية الإمتاعية، وذلك من خلال المزج بين وظيفة الإقناع التي ميزت أساليب القرآن البلاغية، ووظيفة الإمتاع التي عُرف بها.

ومن هذا المنطلق ارتأيت أن يكون منهج البحث جمعا ومزاوجةبين المنهج الوصفي لملاءمته موضوع البحث، مع توظّيف المنهج التداولي الفنّي في بعض مفاصل البحث حينما اقتضت الضرورة لبعض الإجراءات التطبيقية.

2 . شروط الحدث الحجاجي:

تكاد تتفق الدراسات الحجاجية على أنّ الحدث الحجاجي لا يكون حدثا مقنعا وناجعا إلاّ إذا توفرت ثلاثة شروط أساسية:(علي الشبعان، 2010م، ص144).

أ. الموضوع الحجاجي: وهو الذي يقع فيه التباين والاختلاف، أو الفكرة التي تثار حول قضية تتجاذبها الآراء، فقولك: مُحَمَّد أسد، هو أنك أردت إثارة فكرة نسبة الشجاعة لمحمد من خلال تشبيه مُحَمَّد بالأسد، على اعتبار أنّ الأسد عرف بالشجاعة لإقناع المخالف الشاكّ في موضوع شجاعة مُحَمَّد، وهذا زعما منك، إذ قد لا يكون مُحَمَّد شجاعا، يقول شكري مبخوت: " الحجج والشُبَه لا تكتسب قيمتها من ذاتها بل تصبح حججا وشبها بحسب ما يزعمه المثبت لها وبحسب مقتضيات إثباتها ودواعيه أي وجود المخالف بظنونه وشبهاته".(شكري مبخوت، 2010م، ص124).

ب. التقنيات الحجاجية: وهي الآليات أو الوسائل المتبعة داخل النظام اللغوي، وهي محصورة حسب تصور بيرلمان " في اثنتين هما الطريقة الاتصالية أو الوصل (procédé de liaison) والطريقة الانفصالية أو الفصل(procédé dissociation) وهما مفهومان فلسفيان".(صولة، 2011م، ص81).

ولهذين المفهومين حضور في البلاغة العربية كإجراء تطبيقي وتنظيري بتسميات مقاربة لما يعرف بالوصل والفصل، ومخالفة المعنى لظاهر القول، أو " التفسير والتأويل" (ابن تيمية، د تا، ص4). أو الظاهر والباطن، ويكون أكثر تجليا في الصور البيانية.

_ ضروب الوصل(procédés de liaison):تعدّ آلية الوصل طريق من طرق الحجاج التي تشتغل عليها معظم وجوه البلاغة العربية كما يذكر عبد الله صولة في كتابه: في نظرية الحجاج، حيث يعرفه بأنه: " يكون بين الحكم الذي هو عرضة لأن لا يُقْبَل وبين الحُكم أو الحجة التي تدعمه على نحو ما تدعم حقيقة الأمور التي لا تقبل الطعن أو هي على الأقل تقدّم على أنّها كذلك ظواهر هذه الأمور غير مسلّم بها أو غير المجمع عليها ".(صولة، ص100).

ومفهوم هذا التعريف هو أنّ طرق الوصل تكون في أمرين اثنين أي أنني حينما أشبه الإنسان(الأمر1) بالأسد (الأمر2) وهما أمران مختلفان، فإني قد أطلقت حكما بتشبيه أمر مختلف عن أمر ثان في شيء ما، شبهت الإنسان بالأسد في شجاعته مثلا، وهو حكم معرّض لعدم القبول. لكن حينما أدعمه بحجة أنّ مُحَمَّدا شجاع فإنني أصل بين الظاهر التي هي شجاعة الإنسان بالحقيقة التي هي شجاعة الأسد.

_ المخطط التوضيحي رقم (1):

_ ضروب الفصل (procède dissociation): تعتبر من بين طرق الحجاج الفعّالة مثلها مثل ضروب الوصل، لكن تختلف عنها أنّها تكون في الأمر الواحد.(صولة، ص100).

بمعنى أنّ الظاهر والحقيقة يكونان في الأمر الواحد، وآتي لأفصل الظاهر عن الحقيقة التي تكون مخفية محتاجة إلى تأويل، فقولك مثلا: أأسد خالد؟ يوحي إليك على أنّ المتكلم شبّه خالدا بالأسد في الشجاعة،

فخالد إذاً شجاع، لكن في الحقيقة أنّ مراد المتكلم عكس ذلك، فهو قد فصل بين الظاهر الذي يبين على أنّ خالدا شجاع، وبين الحقيقة التي هي أنّ خالدا جبان، كأنّ المتكلم يريد قول: خالد الذي تعتقدون أنّه شجاع هو في الحقيقة جبان.وعليه فالفصل جاء في الأمر الواحد قوله: أأسد خالد؟

وهي تقنية من تقنيات الحجاج التي تقوم على العزل بين المفاهيم، وهي ظاهر/حقيقة –كما يسميها أصحاب علم الحجاج– أي أن يكون ظاهر الكلام (الأسلوب) من تقديم لمفاهيم وقضايا، وتجلية لمعان داخل الخطاب مخالف لحقيقة الباطن (موضوع الخطاب أو مرامي الخطاب) التي تسعى لنصرة اعتقاد أو مذهب أو مشرب ما يستند إليه المخاطِب، وهذا الفصل بين الظاهر والحقيقة هو وصل في حد ذاته يتعلق به الخطاب، ويتشكل به الوعي. (الشبعان، 184-185).

ج . مقام الحجاج وسياقه: ويكون بمراعاة الطرف المخاطَب (المتلقي)، وهذا ما تؤكّد عليه النظرية الحجاجية البيرلمانية في قولها: إنّ الخطاب الأكثر نجاعة وتأثيرا هو ما جاء نتيجة لطبيعة المقام.

« L'éloquence la plus efficace est celle qui semble être la conséquence normale d'une situation » (Perlman et tyteca 2000,p:599)

أو ما عرف عند العرب القدامى بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو ما اختزل في مقولتهم المشهورة لكل مقام مقال.

ويمكــن لي في هذا البحــث أن آخــذ عينات من علم المعاني والبيان والبديع، أجري عليها تطبيقا،أهدف من خلاله الوصول إلى مقاربة حجاجية في جزئية من جزئياته، بتطبيق ضروب الوصل والفصل الحجاجيين.

3 . ضروب الوصل والفصل الحجاجيين (دراسة تطبيقية):

أ) علم المعاني:

النظر إلى علم المعاني من حيث الخاصية الحجاجية، هو النّظر في " أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له".(الهاشمي، د ت، ص35).وهو مأخوذ من تصور البلاغيين القدامى في رؤيتهم أنّ الوجــه الأمثل للبلاغــة موافقتــه مقتضى الحال، ولهذا " لم تكن البلاغة في الكلام مؤثرة مقنعة إلاّ بتمام دلالات المطابقة الصحيحة لمقتضى الحال مع فصاحته".(بركات، 1984م، ص75).ومن أساليب علم المعاني تمثيلا لا حصرا:

أ. 1: الإنشاء:

لا يخرج الأسلوب الإنشائي عن كونه خبرا، إلاّ أنّ ما يميزه أنّه لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا بالتلفظ به، فقولك: قلْ، يعني أنا أطلب منك التحدث. ومن ذلك قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[هود:13] ، أي أنا أطلب منكم أن تأتوا بعشر سور.. والآية في سياق تحدي الله –عزّ وجل– قريشا خاصة وعموم النّاس بأن يأتوا بعشر سور مثله، إن كانت الآيات حقا مفتريات، على سبيل التهكّم والسخرية، يقول الباقلاني(ت403هـ): "فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنّه منه، ودليلا على وحدانيته".(الباقلاني،د ت،ص23).

أمّا بمنظور الوصل الحجاجي فالآية جاءت في مقام التعبير عن عجز الكفار عن الإتيان بسورة من مثل القرآن وهو ظاهر، أمّا الحقيقة فتخالف ما ينطوي عليه ظاهر الآية فتأتي لإثبات أنّه من الله، فوصلت حجّة عجز العرب عن الإتيان بمثله وهي لا تقبل الطعن، بحقيقة أنّه منه تتميما لمعنى وحدانيته. مع ما أضافته معاني الجملة الإنشائية المستفادة من صيغة الأمر في الآية، والتي تجيء كما يرى الزركشي(ت794هـ) " بلفظ الخبر الحاصل تحقيقا لثبوته؛ وأنّه مما ينبغي أن يكون واقعا ولا بدّ".(الزركشي، 1984م، ص349).

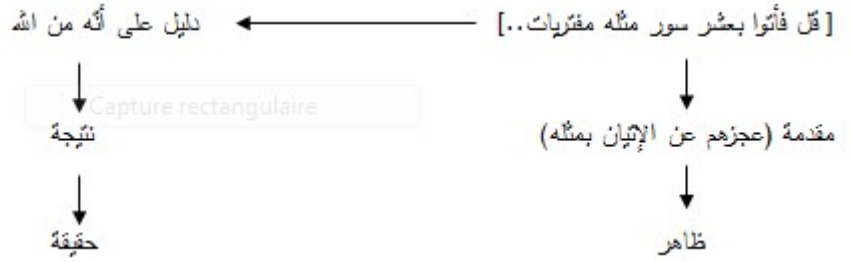

_ المخطط البياني رقم (2):

أمر(صيغة)+تعجيز(غرض بلاغي)= دليل وحدانيته تحقيقا وتثبيتا.

وبمنظور الفصل الحجاجي في الاستفهام الوارد في قوله تعالى: { ءأنتم أشدُ خلْقاً أمِ السماءُ بناها }[النازعات:27] أُحدث فصل داخل مفهوم الآية بين الحقيقة والظاهر، فكأنه قيل: هذا الذي ظاهره أنّكم أشد خلقا، هو في حقيقةً ليس ما يعتقد أنّكم الأشدّ خلقا، من باب التحقير والتصغير، وهذا له وقعه في النّفس من قوله: أنتم لستم أشدّ خلقا، بل أنا الله أشد خلقا.

أ. 2: الحذف:

ومن ذلك قوله تعالى:{ فَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ }[فاطر:4] أي بمعنى " فلا تحزنواصبر".(السيوطي، د ت، ص388).وهو حذف قام بما يدلّ عليه وهو التكذيب.والمخطط البياني الآتي يبين ذلك:

_ المخطط البياني رقم (3):

ويسلمني هذا المعنى الذي قدّمه السّيوطي(ت911هـ) في تخريجه لمعنى الآية، أنّ هناك عدول من المعنى الظاهر من تكذيب للنبيّ –صلّى الله عليه وسلم- إلى معنى مبطّن ويتمثل في حثّه على الصّبر وعدم الحزن، وهو الحقيقة ومراد الكلام.

أ.3: التكرار:

يطلق على هذا النوع من الأساليب بالمشاكلة، ويعده البعض مجازا، وأوردته هنا في باب المعاني على سبيل أنه أسلوب تكرار.(الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ص:365).ويقوم هذا الأسلوب كما يرى حازم القرطاجني(ت684هـ) على وجوب مراعاة " اختلاف ما في الحيزين (المعنى1، المعنى2) اللذين وقع فيهما التكرار من الكلام "(القرطاجني، 1986م، ص36). ويطلق على هذا النوع من الأساليب بالمشاكلة، ويعده البعض مجازا (السيوطي، ص365) وأوردته هنا في باب المعاني على سبيل أنه أسلوب تكرار. ومن ذلك قوله تعالى: { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ } [آل عمران:54] يقول ابن سنان الخفاجي (ت466هـ): " إنّما حمل اللفظ على اللفظ فخرج الانتقام بلفظ الذنب، لأنّ الله عز وجل لا يمكر".(بن سنان الخفاجي، 1982م، ص141).

المعنى1: مكر الكفار(اليهود) = ظلم وشر. المعنى 2: مكر الله= عدل وخير

فخرج اللفظ (مكر الله) عن معناه الأول (مكر اليهود) الذي بمعنى الظلم والشّر إلى معنى ثان هو الانتقام بلفــظ الذّنب (الظلم والشّر) الذي هو عدل وخير. ومن المؤكد كما يرى حازم" أنّه من أتقن هذا الضرب من المعاني المكررة كان كلامه ممتعا من كل فن من فنون البلاغة، وكان حَسَنَ الموقع من النفوس".(القرطاجني، ص37).

إليك المخطط البياني الآتي مبينا ذلك:

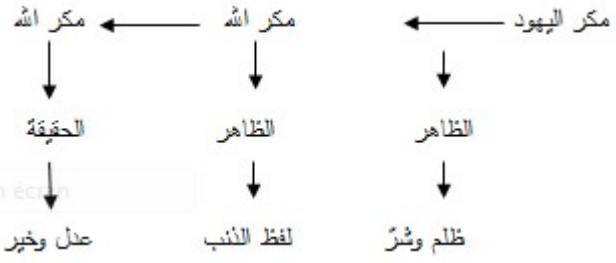

_ المخطط البياني رقم (4):

وبطريق الفصل الحجاجي أسلوب التكرار في قوله تعالى:{ وقالــت اليهودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَــةً غُلَّتْ أيْديهمْ ولُعِنوا بما قالوا }[المائدة:64]، حيث تبدو جملة [غلّت أيديهم] المكرّرة فصلا بين ظاهر ما يعتقد اليهود من عدم قدرة الله على الإنفاق (البخل) ، وحقيقة ما عليه الأمور في عالم الغيب (سعة الكرم)، بغرض التوبيخ والوعيد.

بـ) علم البيان:

وهو علم مرتبــط بدراسة الظواهر البيانيــة، التي تعنى بكيفية تأدية المعنى بطرق مختلفة، والعملية الحجاجية فيه تتم بطريق الاستدلال الذهني، وما يحدثه هذا الأخير من لذة تفضي إلى الإقناع، فلو أنّك أردت أن تنعت رجلا بأنّه يستعمل الحيلة لتثبت هذه الصفة فقلت بأسلوب الحقيقة مثلا: فلان يستعمل الحيلة، لما وصلت إلى درجة عالية من الإقناع كقولك: فلان كالثعلب، أو ثعلب. كيف؟

لأنّ التركيب الحقيقي لم يفسح للمتلقي المجال لعملية التخييل، الذي بدوره يوصله إلى الإقناع؛ فحينما شبهت هذا الإنسان بالثعلب، فأنت قد وضعت المتلقي أمام صورتين مختلفتين متباعدتين، صورة الإنسان (ظاهر الكلام)، وصورة الثعلب(ظاهر الكلام)، ثم دفعت به إلى عملية انتقال ذهني بين الصورتين لتُحقق المشابهة (الحقيقة)، فيبدأ المتلقي في تصور ما يفعله الثعلب من حيل للإيقاع بفريسته، ثم العودة إلى هذا

الإنسان، فيتأكد لديه أنّ المشبّه شديد الحيلة لا أمان فيـه، وبالتالي فأنت قد جعلـت منه يقتنع ويرضخ وينساق إلى مرادك بطريـق التصوير وهذا الفصل بين الظاهر(الأسلوب) هو وصل في حدذ ذاته " يتعلق به الخطاب، ويتشكل به الوعي" (الشبعان، ص185). وهو مثله في الصور البلاغية الأخرى، وقد اخترت للتدليل على هذا نماذج من هذه الصور البلاغية على سبيل التمثيل لا الحصر منها:

بـ.1: التشبيه:

يقول الله تعالى:{ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }[الفرقان:44] يقول الطّاهر بن عاشور(ت1393هـ):" فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدّعوة آذانهم مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيئتهم للاهتمام بها، فالغرض من التشبيه التقريب والإمكان".(الطاهر بن عاشور، 1984م، ص37).

أمّا من زاوية نظر حجاجية يرى عبد الله صولة في مثال مشابه له أنّه راجع " إلى أصل واحد وهو أنه يعدل عن (ب) التي هي معلومة جديدة إلى (أ) التي هي معلومة قديمة إذا كانت (ب) تمثل إجمالا حكما هو موضوع اعتراض بطريقة أو بأخرى أو هو يقدر له أن يكون كذلك".(صولة، ص91).

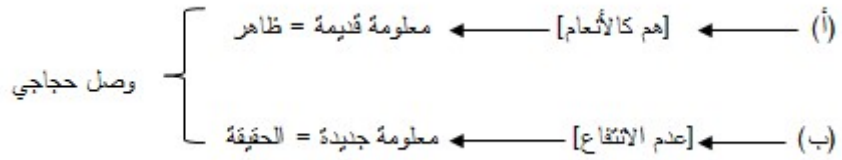

_ المخطط البياني رقم (5):

بـ.2: الاستعارة:

قال تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة:81] ، يقول السيوطي(ت:911هـ): أي معنى " أنذرهم استعيرت البشارة وهي الإخبار بما يسرّ، للإنذار الذي هو ضده، بإدخاله في جنسها على سبيل التهكم والاستهزاء".(السيوطي، ص361-362).وهو فصل حجاجي داخل مفهوم واحد بين ظاهرالكلام (الأسلوب) بشرهم والذي يعني الإخبار بما يسر، والحقيقـة (الباطن) والذي هو الإخبار بما يخـوف، وهي أبلغ في التعبيـر من المعنى الحقيقي (أنذرهم) في هذا السّياق، فمن نعتهم الله بالبشارة في الظاهر هم ليسوا كذلك حقيقة من باب السّخرية والتهكم.

_ المخطط البياني رقم (6):

ويمكنني القول إنّ " مثل هذه الحجّة الناتجة عن التشبيه والاستعارة تحديدا تظهر فعاليتها الحجاجية في أنّها تمثل درجة أعلى في الإقناع من درجة المعنى الحقيقي". (صولة، ص93).

ب. 3: الكناية:

يقول تعالى: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [الدخان:49].يؤكّـد السّيوطي(ت911هـ) أنّه " لم يقصد إفادة ذلك لأنّه معلوم، بل إفادة لازمه، وهو أنّهم يردونها ويجدون حرّها إن لم يجاهدوا".(القاضي الجرجاني1984م، ص173-174).

يتضح هنا أنّه قد أُحْدِث وصل داخل المفهوم الواحد بين الظاهر(الإخبار عن نار جهنّم) والحقيقة (ورودها إن لم يجاهدوا)، فكأنّك قلت بمقام الترهيب والتهديد: هذا الذي ظاهره إخبارهم عن شدة نار جهنم هو في الحقيقة ورودها إن لم يجاهدوا.

_ المخطط البياني رقم (6):

وبطريق الفصل قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً }[سورة ص:23] ، يقول السيوطي: " فكنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك؛ لأن ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه".(السيوطي، ص363).

هنا فصلُ (مخالفةُ) ظاهرِ الكلام (الأسلوب) والذي يعني النعجة، لحقيقة باطن الكلام (غرض الكلام) والذي تُرك التصريح به كما ذكر السيوطي لأنّه الأجمل وهو من عادة العرب، وهذا الفصل بين الظاهر والحقيقة هو وصل في حدّ ذاته.

جـ) علم البديع:

هو علم مرتبط بوجوه تحسين الكلام، لكن ما يمكن الإشارة إليه أنّ وجوه البديع لا تختص بالوظيفة التحسينية في جميع أحوالها بمعزل عن مكوّنات البنى النّصية الأخرى ذات المقاصد المرتبطة بالمعنى والأثر المترتّب عنها، فهي تؤدّي طريقة ما يسمى بالفصل الحجاجي، مثلها مثل الوجوه البلاغية الأخرى من علم للمعاني والبيان.(صولة، ص108).

ومن ذلك:

جـ .1: الطباق:

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى:{ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ} [المائدة:54].قال الزركشي(ت745هـ): "فإنّه لو اقتصر على وصفهم بالذلّة وهو السهولة لتوهّم أنّ ذلك لضعفهم، فلمّا قيل: (أعزة على الكافرين) عُلم أنّها منهم تواضع".(الزركشي، ص65).

وربما –والله أعلم– لو اقتصر أيضا على قوله (أعزة على الكافرين) لتوهم أيضا أنّ ذلك لكبر فيهم، فلمّا سبق بسياق القول (أذلّة على المؤمنين) كان جمعا بين التواضع والكبرياء.

لكن من وجهة نظر حجاجية فهذا اللون البديعي المتمثل في الطباق يمثل فصلا بين مفهومي الوهم والعلم اليقين، أو بين ما يسمّى الظاهر والحقيقة. (الزركشي، ص105).

ومبنى الحجّة في هذه الآية على هذا النقيض (أذلة≠أعزة المؤمنين≠الكافرين) وهو طريق يؤتى به لاستكمال المعنى (رفعت وهما لضعف، معالكبر) واستهداف المخاطَب بالأثر المترتب عليه (اعتقادالتواضعوالكبرياء)،وهيعلاقةتلازميةلابدمنهاحتيتمّالفهمالصحيح للمعنى الإجمالي.

أذلة≠أعزة المؤمنين≠الكافرين = تواضع+ كبرياء=كمالا لصفات في هذا الباب.

_ المخطط البياني رقم (7):

ج .2: نفي الشيء بإيجابه:

ومن ذلك قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف:195]. يرى ابن أبي الإصبع(ت654هـ) أنّ " الظاهر يقتضي نفي الجوارح، وباطن الكلام يقتضي نفي الإلهية جملة عمن يبصر ويسمع مع الآلهـــة المتخذة من دون الله تعالى، فكيف من لا يسمع ولا يبصر".(ابن أبي الإصبع، د ت، ص152).

فإنّ قوله {أم لهم أعين يبصرون بها..} يوهم أنّ لهم أعينا غير أنّهم لا ينتفعون بها (الظاهر)وهو إيجاب، ولكن المراد أنّهم ليس لهـــم أعينا ولا آذانا حتى يرو ويسمعـــوا بها (الحقيقة) وهو نفي، لأنّ " هذه الأصنام انتفـــت عنها هذه الأعضـاء ومنافعها، فليست قادرة على نفع ولا ضرّ، فامتنع كونها آلهة".(أبو حيان الأندلسي، 1993م، ج4، ص441).وهو عدول (فصلٌ) واقعٌ من ظاهر القول، نفي الجوارح، إلى نفي الإلهية وهي الحقيقة المراد من الخطاب.

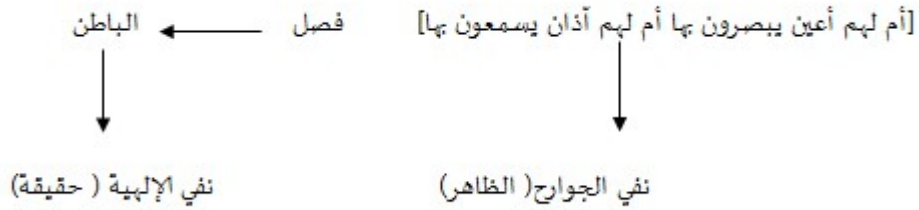

_ المخطط البياني رقم (8):

ج .3:تأكيد الشيء بما يشبه ضده:

يذكر السجلماسي(ت704هـ) من صور هذا النوع الاستثناء مستدلاّ بقوله عز وجل: { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ }[البروج:8].ويعرّفه على أنّه: " انتزاع عن مادتي المدح المؤكّد بما يشبه الذمّ، والذمّ المؤكّد بما يشبه المدح، معنى كليا بسيطا، وذلك بأن نسقط من كل واحد منهما المعنى الذي هو به ما هو بالنسبة إلى الآخر وهو الفصل المقسّم فيبقى لنا المقابل من حيث هو وهو الكلي البسيط". (السجلماسي، 1980م، ص288).

فالعدول في الآية حاصل من وجهة نظر الفصل الحجاجي من الظاهر الذي يشبه المدح إلى الذمّ الذي هو مؤكّد، فالنفي الظاهر الذي يشبه المدح من قوله:{ ومانقموا منهم..}والتي تعني نفي المكافأة بالعقوبة، إلى الحقيقة الذي هو ذمّ مؤكّد من الله- تعالى- من قوله: {إلاّ أن يؤمنوا بالله..} هو المراد. وكأنّك قلت: هؤلاء الذين نقموا، والذين ظاهرهم ممدوح ليسوا بممدوحين.

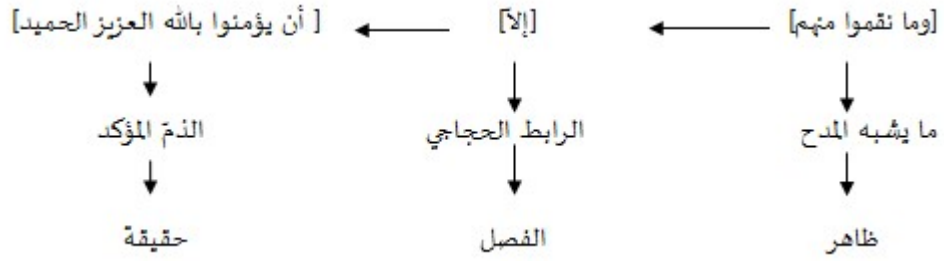

_ المخطط البياني رقم (9):

وهذه المعاني الزائدة هنا في الأمثلة السابقة على المعنى الأول والتي تمثل حقيقة المعنى المستفاد منها هو" الذي يعمق درجة الإقناع بالنتيجة التي توجه إليها الملفوظ". (صولة،ص99).

وبهذا يتبين أنّ الوجوه البلاغية في مجملها من علوم " البيان والمعاني [والبديع لها] دور جدلي حجاجي كبير".(الطلبة، ص269).

4. الخاتمة:

وفي الإجمال ظلّت البلاغة القرآنية تفرض نفسها-دوما- على وعي الناقد القديم والحديث، أثناء بحثه القضايا الجمالية، كما كانت تفرض نفسها عليه في محاولته تتبع ما حققته من حجاجية، وعليه فما يمكنني استخلاصه في نهاية هذا البحث المقتضب هو الآتي:

_ اكتساب الخطاب القرآني الدرجة العالية من الإقناع والإمتاع تأتي بتعدّد وسائله، من علم معان وبيان وبديع.

_ اعتبار ضروب الوصل والفصل تقنية حجاجية، ومثالا حيا على تجليات الأثر الحجاجي لأساليب البلاغة القرآنية.

_ اعتبار الصورة البلاغية في القرآن الكريم هي جوهر عملية التشكّل الحجاجي بمنظور ضروب الوصل والفصل الحجاجيين.

_ التأكيد على أنّ الوصول إلى المظهر الحجاجي للخطاب القرآني كثيرا ما يوجد مضمرا لا يفصح عن معناه إلاّ بكفاءة المتلقي اللغوية والبلاغية.

وعليه فقد استطاع النص القرآني بجمالية بلاغته الراقية المعجزة أن يَفرض منطقه ويُعجز خصومه، فلم يُمكَّنوا من الإتيان بمثله، أو عشر سور مثله، أو سورة مثله، وهذا يسوقني للقول أنّ " البلاغة حجاجية بامتياز".(حمداوي، 2014م، ص80).

5. المراجع:

5. أ . قائمة المراجع:

ـ ابن أبي الإصبع المصري، ط2، (د تا)، بديع القرآن، تح: حفني مُحَمَّد شرف، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة–القاهرة.

ـ الأندلسي أبو حيان ، ط1، 1993م، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.

ـ أوكان عمر ، ط1، 2011م، اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

ـ الباقلاني أبو بكر مُحَمَّد بن الطيب ، إعجاز القرآن، تح: سيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، (د ط)، (د تا).

ـ بركات مُحَمَّد . حمدي أبو علي، 1984م، دراسات في البلاغة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان.

ـ ابن تيمية، (د ط)، (د تا)، الإكليل في المتشابه والتنزيل، خرج أحاديثه وعلق عليه: مُحَمَّد الشيمي شحاته، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية.

ـ حمداوي جميل ، 2014م، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، المغرب.

Chaïm Perlman et Lucie olbrechtstyteca,, 2000,Traite de l'argumentation-la nouvelle rhétorique-, , préface de michelmeyer-5eme éditions de l'université de Bruxelles.

ـ الزركشي بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله ، ط3، 1984م،البرهان في علوم القرآن، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

ـ السجلماسي أبو مُحَمَّد القاسم ، ط1، 1980م، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط–المغرب.

ـ بن سنان الخفاجي أبو مُحَمَّد عبد الله ، ط1، 1982م، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.

ـالسيوطي جلال الدين ، (د ط)، (د تا)، الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة، الفجالة – مصر.

ـ الشبعان علي ، ط1، 2010م، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (البحث في الأشكال والاستراتيجيات)، تقديم: حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة.

ـ شكري مبخوت، ط2، 2010م، الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي–ليبيا.

_ صولة عبد الله ، ط1، 2011م، في نظرية الحجاج(دراسات وتطبيقات)، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس.

_ الطلبة مُحَمَّد الأمين ، ط1، 2008م الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان.

_ بن عاشور مُحَمَّد الطاهر ، 1984م، التحرير والتنوير، الدار التونسة للنشر، (د ط).

_ القاضي الجرجاني أبوا العباس أحمد بن مُحَمَّد الثقفي، ط1، 1984م، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، دار الكتاب العلمية، بيروت – لبنان.

_ القرطاجني حازم أبو الحسن ، ط3، 1986م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة، دار العرب الإسلامي، بيروت- لبنان.

_ الهاشمي السيّد أحمد،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، شرح وتحقيق: حسن حمد، دار الجيل، بيروت، طبعة جديدة محققة، (د تا).